

بَعْضُ الشَّوَابِ فِي النُّحُو

لِلْأَسْتَاذِ عَبَّاسِ حَسَنِ
عَضْوِ مَجْمَعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ

على أعلى مقومات حياتهم ، وأن يخوطوها بسياج متين من اليقظة الدائبة ، والحيطة الوافية ، والتضحية الغالية ، حملت التاريخ الأمين أن يسجل لهم في أسس محائفه مالم يسجله لغيرهم من القدامى ، ويسدون عنهم مالم يدونه لسواهم .

لقد قضى هؤلاء وما انقضى فضلهم ، وغابوا عنا وما غابت آثارهم ولا انقطعت آثارهم ، فقد خلفهم اعلام اهتموا بهديهم ، وسلكوا المحجة على نور منهم وارشاد . ومن هؤلاء الاخلاف نحائنا السابقون ، جزاهم الله خير الجزاء بما قدموا واحسنوا واخلصوا لدينهم ولغتهم وعروبتهم .

ايها السادة :

ليس من شك أن التراث النحوي نفيس غاية النفاسة ، وأن الجهد الحميد الذي بذله رجاله والقوامون على اعداده ورعايته جهد لم يهيا لكثير من العلوم القديمة ، ولا يقدر على بذله واحتمال بعض اعبائه حشود من التراثين العجزة الذين يسارون عجزهم وقصورهم بغز النحو ، وطمن السابقين من ائمة الانداز ، وما انا بسبيل الكلام عن فضل النحو ، وتبيان آثاره في حياتنا اللغوية ، والدينية ، والحضارية فهو من هذا كله الدعامة الاولى ، والقانون الاعلى ، منه تستمد العون ، وتستلهم القصد السوي ، وتُهرَع اليه في جليل شؤونها ، وجوانب حياتها ، ولن تجد علما من

ايها السادة :

تحية الله وبركاته عليكم ، وخالص الدعاء ان يكتب لكم التوفيق الاسمى فيما انتم بسبيله . وانتهز الفرصة لازجي صادق الود ، وبالع التقدير لآخوان كرام قدموا علينا فامتلت القلوب انسا بهم ، وانتشت الامثدة بسرورا برؤيتهم ، وتحركت وشائج قرى اميلة ، وروابط مودات لا تزيدها الايام الا قوة وخلودا .

ولامر ما وسر كما نلقى العربي اخاه العربي فينتفق وجهها غبطة وانشراحا ، وتفيض جوانب نفسها بالارتياح والثقة والاطمئنان ، على حين يلتقى غير العربي — وان كان صديقا وفيا ، وزميلا مشاركا في نعماء الحياة ويؤسها — فيهش كلاهما للآخر ويكتفى من مظاهر الفرحه بهذا ، فشتان بين لقاء ولقاء ، وما اوسع البون بين هذا وذاك ، فهل لخبراء النفس ، واعلام الطب ، وحذاق الفهم ان يكشفوا لنا عن هذا السر الكامن الذي تزداد قوته على الدهر ، وتنمو على الايام خصائصه ؟ ولعلكم تسمحون لي بالجواب الى ان يأتينا منهم فصل الخطاب .

ان الاجابة تنحصر — او تكاد تنحصر — اللغه التي تؤلف بيننا ، وتجمع شتاتنا ، وتربط قلوبنا برباط من الصلة الدائمة ، والحب المقيم . فلم يكن عجيبا من اسلافنا — اجزل الله ثوابهم — ان يسهروا على خدمتها سهرهم على اعز نفائسهم ، ويحرصوا عليها حرصهم

(*) عن مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة للدورة الخامسة والثلاثين 1968 — 1969 .

علومها يستقل بنفسه عن النحو ، ار يستغنى عن معونته ، وارشاده ، ولا سيما علوم الدين ، والوصول الى مراتى الاجتهاد ، ولله ابن التبارى حيث يقول فى الفصل الحادى عشر من كتابه : «لعم الإدلة» ما نصه : «ان الأئمة من السلف والخلف أجمعوا قاطبة على ان النحو شرط فى رتبة الاجتهاد ، وأن المجتهد لو جمع علوم العربية لم يبلغ مرتبة الاجتهاد حتى يعلم النحو ، فيعرف المعانى والأحكام التى لاسبيل لمعرفة بغيره ، فرتبة الاجتهاد متوقفة عليه ، لا تتم الا به» اهـ . ايها السادة :

لا يزهينا الثناء المردد على النحو ، ولا ينسينا ما داخله من شوائب اساعت اليه . ولست الساعة بسبيل حصرها ، واستقصاء ما تراكم منها . ولكنى اكتفى بالتمريج الى ثلاثة من كبارها كان لها ابرز الأثر فيما أصاب « النحو » من سوء ، وناله من مغامز .

وأولها : ما يسمى فى عرف النحاة «بالجمهور» يطلقونه على الكثرة الكاثرة من نحاة البصرة ، وتقابله القلة المغلوبة التى اشتهرت بينهم كذلك باسم : «الكوفيين» ، او «الكوفية»

وثانيها : ما ابتدعوا و اوغلو فيه من التأويل . والحذف ، والتقدير ، حتى استباح لنفسه امام منهم ان يقول : «لولا الحذف والتقدير لفهم النحو الحمير» . ويلفت بهم الجراة ان يطبقوا هذا على القرآن الكريم فى كثير مما خالف قواعدهم ، وخرج على ضوابطهم .

وثالثها : حال المشغلين بالنحو منذ القرن الثالث الهجرى حتى اليوم ، وموقفهم من انفسهم ومن هؤلاء . على ان هذه المناكر الثلاثة مترابطة متداخلة لا تكاد تنفصم ، وسأشير الى كل منها اشارة موجزة مفيدة ، وأومئ اليها ايماءة تكشف القناع عن سوء آثارها .

فأما البصرة والكوفة فلا يعينى من تاريخهما الا نشأتها الأولى فى القرن الهجرى الاول ، وان ميلاد البصرة اسبق من ميلاد اختها بيضع عشرات من السنين ، وانما فازت بالحظوة لدى خلفاء بنى العباس ولقد استرعى انتباهى وشغلنى طويلا أن أرى البصرة تنفوز فى كثير من المسائل النحوية بالتنويه ، والاشادة ، والتقدير ، ولو كانت ابعد من الصواب . على حسين تخفق الكوفة فى انتزاع التنويه والاشادة فى تلك المسائل ،

مع انها فى حكمها أدنى الى السداد واقرب الى الصواب . راعنى الامر وعجزت عن ادراك سره طويلا حتى هدانى اليه ، وكشفه لى عالم مؤرخ جليل اقدر فيه انه ثبت العلم ، متحر فى حقائقه ، فقال : لا تنس ان الكوفة كانت مأوى الشيعة العلوية ، ومهبط انصارها ممن يخشاهم العباسيون اول نشأة دولتهم ، ونشأة النحو معهم ، ويخافون تأليبهم ، فراقبوا تلك المدينة ، اصحاب الراى فيها مراقة حازمة بطريقة ناجمة ، ولكنها هادنة . هى الاغداق على اهل البصرة وذوى الراى والوجاهة من علمائها الاعلام وتقريبهم من مجالس الخلفاء ومراتب الحكم والجاه . فاقبل الناس على من اقبلت عليه الدنيا ونشروا آراءه بالحق وبالهوى ، وانصرفوا عن اعرضت عنه الدنيا ، فما اليه حاجة تبتغى ، ولا غرض يرتجى تحقيقه .

هذا ما يقوله المؤرخ الامين يفسر به الغامض ، ويجلو الخفى من الامر . وسواء اكان رايه تعليلا صحيحا للواقع أم بعيدا منه ، لا شك أنا نشهد اليوم آثار الطغيان البصرى فى كتب النحو قديمها وحديثها ، فما نكاد نقرأ بابا من ابوابه على كثرتها وتشعب مسائلها حتى نصدم بمثل قولهم : «هذا راي الجمهور ، وهو الصحيح ، خلافا للكوفيين» — «هذا راي البصريين ، وخالف الكوفية» — «هذا راي الجمهور وعليه الممول» وامثال هذه العبارات التى اكتفيت بما عرضته منها . نزولا على ضيق الوقت ، ومراعاة للمقام كما يقولون . وحسبى أن اعرض صورا تؤيد دعواى ، واتوصل بها الى ايضاح ما اريد :

(أ) فمن الامثلة ما جاء فى التوضيح وحاشيته ويكاد يكون نصه : « : يجب نصب المستثنى بالا فى لغة الجمهور اذا كان الكلام تاما موجبا ، كقوله تعالى : «فشربوا منه الا قليلا منهم» ولا يجوز رفعه الا بتأويل . ومما تناولوه بالتأويل قراءة من قرأ قوله تعالى : «فشربوا منه الا قليل منهم» برفع كلمة «قليل» وقوله عليه السلام : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة الا امرأة ، او مسافر او مريض) ، وقوله عليه السلام : (ما للشياطين من سلاح ابلغ فى الصالحين من النساء الا المتزوجون) ، وكقول أبى نواس فى مدح الامين .

ياخير من كان ومن يكون الا النبى الطاهر الامين

— واردفوا هذا البيت بقولهم : ان ابا نواس يستعمل فى شعره مذهب الكوفيين كثيرا وهذا من جملة مذاهبيهم — وقول الشاعر :

وبالصريمة منهم منزل خَلَقُ

عاب تغير الا النوى والوتد

وقد تناولوا هذا البيت بما تناولوا به الآية السالفة - وغيرها - من التأويل الذى يجعل الكلام تاما منفيا لا موجبا - كى يصلوا من وراء هذا الى اعتبار الكلام تاما غير موجب ، فيجوز فيه الرفع والنصب ، وان المراد من الفعل : «تغير» فى البيت هو : لم يبق حاله ، وبهذا صار الكلام تاما غير موجب كما يشتهون . ويروفتى ما سجله بعض المحققين المثبتين ردا على تأويلهم السالف حيث يقول : «(لاشك ان كلامهم مردود ، وتأويلهم بعيد بل فاسد ، اذ يمكن تطبيقه على كل كلام تام يجب نصبه . بيان هذا : ان كل كلام مثبت لا بد له من ضد غير مثبت ، فمعنى «تعلم الرجل» : لم يجهد ، ومعنى «جهل» : لم يتعلم ومعنى «تحرك الطفل» لم يسكن ، ومعنى «سكن» : لم يتحرك ، ومعنى (شرب) لم يفقد الماء ولم يظمأ ، ومعنى «فقد الماء» ما شرب ، ، وهكذا . . . فلو أخذنا برأى هؤلاء النحاة وفتحنا باب التأويل لم يبق فى الكلام العربى أسلوب مقصور » على التمام مع الإيجاب « دون ان يصلح للنوع الثانى ، وهو « التام غير الموجب » وهذا غير مقبول . والحق الذى لم يتنبه له كثرة النحاة ان الآية والامثلة السالفة واشباهها ما وقع فيه المستثنى غير منصوب فى الكلام التام الموجب ، انما ورد صحيحا مطابقا للغة بعض القبائل العربية : لتى تجعل الكلام التام الموجب والتام غير الموجب متماثلين فى الحكم ، يجوز فيهما اما النصب على الاستثناء ، واما البطل من المستثنى منه ، واما الرفع على الإبداء ، ، ، فلا معنى للتأويل بقصد اخضاع لغة قبيلة للغة نظيرتها . واذا كان التأويل معييا وواجبا الفرار منه جهد استطاعتنا فان الانسب اليوم لنا ان نتخير عند الضبط الاعرابى للغة الضاربة فى الفصاحة الغالبة الشائعة بين اللغات المتعددة ، لنقتصر عليها فى استعمالنا ، تاركين غيرها من اللغات واللهجات الاعرابية الضعيفة او المعيبة ، توجيدا للتفاهم ، وفرارا من البلبلة الناشئة من تعدد اللغات واللهجات بغير حاجة ماسة ، فعلينا ان نعرف تلك اللغات الضعيفة فى مناسباتها ويستعين بها المتخصصون على فهم النصوص السوازة بها دون محاكاتها فى ضبط الحروف ، او القياس عليها ، بالرغم من انها صحيحة يجوز محاكاتها ، لان كل ما قرئ به القرآن يصح محاكاته» ١ هـ .

فالأية عندهم مؤولة ، والاحاديث مؤولة ، والشعر مؤول . والكلام نثره ونظمه مؤول ان خالف قاعدتهم . و عجيب ان يخضعوا الكلام المخالف كله لسهام التأويل والحذف والتقدير دون ان يصحوا قاعدتهم لتساير أفصح الكلام وفصيحه ، ويتحمل الباحثون والمتعلمون من العناء والبلبلية والاضطراب ما لا خير فيه ، بل ما فيه الضرر واضع ومع هذا نبقى عليه ونرده منذ عشرات القرون . ولا نجد من يقف فى طريقه ليصده ويحول بينه وبين الذبوع والانتشار .

(ب) مثال آخر - وما اكثر الامثلة - يقول النحاة لا يصح ان يتصل بأخر الفعل علامة تثنية او جمع اذا كان فاعله اسما ظاهرا ، وما ورد مخالفا لهذا بمؤول كقوله تعالى : «وَعَمُوا وَصَمُوا كَثِيرًا مِنْهُمْ» وقول الشاعر

تولى قتال المارقين بنفسه

وقد اسلماه مُبِعِد وَحَبِيم

وقول الثالث :

نصروك قومي فاعتززت بنصرهم

ولو أنهم خذلوك كنت ذليلا

وقول الرابع :

يلوموننى فى اشتراء النخيب

ل اهلنى فكلهمو يعذل

كل هذا وامثاله مؤول عندهم لمخالفته قاعدتهم ، اما هى ثابته ركيئة لا تتاول ولا تتحول .

(ج) وفى النحو باب عجيب يسمى : «باب التنازع» له من اسمه أو فى نصيب تشير فيه الى قولهم : « قام و تكلم محمد» ، لا يصح ان يكون الفاعل للفعلين معا هو محمد ، وخالف فى هذا فريق - يتصدون الكوفيين اما لماذا لا يصح فكلام بادي الوهن .

(د) ويقول ابن هشام ان جموع التكسير سماعية كلها ، ولا يلبث بعد كلمات من حكمه هذا ان يبين المطرد منها وغير المطرد ، ويصف مفردات تلك الجموع المطردة . فإى تناقض هذا بين حكمه وعمله . وما زال كثير منا يجاربه فى هذا الحكم الخاطيء .

ويقول ابن هشام ايضا إن «منعولا» لا يجمع قياسا على «مفاعيل» وأن «تَعَلًا» صحيح العين لا يجمع قياسا على «أفعال» وما ورد من ذلك نشاذ . مع أنه عرض من هذا الشاذ لكل نوع

ما يزيد على المشورة ، وعرض غيره ممن جاء بعده عشرات ، وما زال كثير يتابعه ويقدم ما قاله بغير حق ولا سداد .

هـ) ويقول ابن مالك في « الفيته » : « ونعمتوا بمصدر كثيرا » ، فيجىء شارحه الاشموني ويقول : مع كثرته مقصور على السماع . فكيف يصح الحكم بأنه كثير ومع كثرته مقصور على السماع ؟

و) ويقول ابن مالك ايضا :

فعل قياس مصدر المعدى

من ذى ثلاثة ، كردد ردا

فيقول سيبويه : هذا مقصور على السماع الوارد لا يجوز مخالفته ، فان لم يرد للفعل مصدر مسوم لجانا للقياس . فهل هذا مما تقبله العقول المفكرة المتبينة ؟

ويعد . فما الذى ابلغه من كل ما سلف ؟ اريد ان اقرر باب الاجتهاد اللغوى مفتوح ، والدخول منه ميسور لمن شاء مادام مسلحا بنور العلم ، وسداد الراى ، والبعد من الانراط والتريط ، والميل الى التيسير في غير انسداد ولا تحجر ولا جمود ، وان نحرّم التأويل في كتاب الله بغير حاجة ملحة تدعو الى التأويل . ومن العجائب ان نؤمن عن يقين واطمئنان ان القرآن الكريم اسمى لغة بيانية عرفتها البشرية فاذا حاكاه الاديب والمثقف حكما على المحاكاة احيانا بالخطا في بعض مناحيها . فان دافع المتكلم عن نفسه وقال انى احاكى القرآن واسير على نهجه كان الجواب : « القرآن مؤول اما انت فمخطىء » فهل يخطىء من يحاكى القرآن ؟ واذا ساغ لهم تأويل القرآن . فليستسيغوا تأويل غيره من باب اولى دون تخطئه مع ثبوت محاكاته .

لسنا اليوم بالبصريين ، ولا الكوفيين ، ولا غيرهم من نحاة المشاركة والمغاربة وليست الدواعى التى كانت قائمة اذ ذاك ببياتية اليوم ، وليست الدوافع التى تدفعنا الى التجديد والتنقيح والتيسير حيننا والتشدد حيننا مما يهمل امره ، او يغفل شأنه . فعلىنا واجب يفرضه الحسب للفتنا ، والحفاظ عليها ، والاخلاص لبلادنا ومتعلمينا ، هو : ان نخلص النحو من شوائبه في غير تسرع ولا تخلف ، وان نقضى على ما ذاع وشاع مما اسانا فيه فاسانا الى اللغة تبعا لذلك ، كالذى تردده بعض الالسنفة من مثل : (في ضبط هذه الكلمة قولان او اقوال) (هـ)

المعنى فرغ الاعراب ؟ هل الاعراب فرغ المعنى؟ (حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، وكفى (في الكلام تضمين) الى امثال هذه الشائعات التى انسدت علينا جوانب من سلامة الاسلوب ، اذ لم يتضح المراد الحق منها لكثير من يتشدقون بها ، ولم يتبين اهم الغرض الصحيح الذى رعى اليه مبتكروها .

علينا ان نعرض قواعد النحو على القرآن الكريم ، والصحيح من احاديث الرسول ، والفصح من كلام العرب ، دون اعتبار لتميم او قيس او غيرها من القبائل الستة التى اقتصر جامعوا اللغة عليها مع ما فيها من تخالف وتعارض وزاد الامر اساءة انهم تركوا القبائل الكثيرة الاخرى مقتصرين بغير حق على تلك القبائل الست المتخالفة ، وكان من جراء هذا وذاك البلبلة النحوية التى نشاهدها اليوم ، وان ناخذ بالخطا الحكيمة البارعة التى اختطها احد المحققين من ثقات الباحثين ونلخصها في الانتصار في ضبط الحروف ضبطا اعرابيا على ما ورد في القرآن الكريم وفي المراجع السالفة ، وفي الثابت من كلام القدماء ، دون ان نسمح بتمسك الضبوط الاعرابية في الكلمة الواحدة ، ودون ان نطلق عليها الا اسما اصطلاحيا واحدا . فمن الانسداد ان نقول ان هذه الكلمة تصلح ان تكون حالا ، وتبيضا ، ومفعولا مطلقا ، ومفعولا به ، او معه ، لا يصح ان نقول هذا ؛ لما فيه من اهدار لمهمة خاصة يؤديها كل نوع على انفراد والغاء لفائده التى يتميز بها ، والمراد الحق منه . وليس بعد هذا انسداد واضطراب .

اما متن اللغة الذى يشمل مفرداتها ومادتها فلنا ان ناخذ منه ما نشاء من هذه القبيلة ومن تلك ، دون توقف او تردد ، ففى هذا الاخذ الحر المسوم عنهم اثراء اللغة ، وتمكين لها ، وزيادة محمودة طيبة الاثر .

ايها السادة :

من اجدر بتحقيق هذا الامل وانجاز الخطا القويمة الجديرة به او بما يماثله من حكيمة الخطط وبارع الابتكار؟ انهم علماء مجاهدا الاعلام ، وسدنة لفتها الامثاذا واليهم تتجه العيون والقلوب . بهذا يضيفون الى فضل التداى فضلا جديدا لا يجحد ، وخالدا لا يمحي .

كان بودى ان اعرض لكثير من الشوائب الاخرى كلفة النحاة ، وجدلهم في مجالسهم ، ووهن حججهم وادلتهم ،

ولكن فى غير مكاته ، والاطالة فى غير افادة ، والاستطالة
على الواتع بهرج القول وخادع الكلام .

وفى الله المآمع ورجالها الى مآنيه صون اللغة
ونقاؤها على الايام خالدة ناهضة . والسلام على من
اتبع الهدى .

وما يتخللها من الفاظ واشارات ، ولكن الوقت سواق
حطم ، يدفمنى الى النهاية ، ويابى المزيد . ولا يفوتنى
وانا اشير الى تعليقاتهم التى تورث العلة احيانا — ان
أدمو القارئ لمآبمة كتاب «كالانصاف فى اسباب الخلاف»
لابن الاتبارى ، أو كتاب «الروضة» ، ، ليقرا ويشهد
أبرع أنواع المنطق ولكن فى غير موضعه ، الراى المحكم

